الحس الحضاري المعاصر في الرواية العربية – جست شاتنغ/ليس أكثر من كلام للروائي يحي عبابنة أنموذجا

د. عبدالرحيم مراشدة
جامعة جدارا /الأردن.

ملخص

تحاول هذه الدراسة تتبع أثر إفرازات الحضارة المعاصرة، وانعكاس منتجاتها، بخاصة السلبية منها، على المنتج الإبداعي الروائي في الرواية العربية، وتحديدا للدراسة ووصولاً لهدفها الأساس السالف، فقد ارتأى الباحث الحالي أن يتمركز حول نموذج محدد من الروايات العربية، ووقع اختياره على رواية (جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام) للروائي العربي يحي عبابنة، وكان سباب الاختيار هو: كون هذه الرواية تمثل مرحلة من مراحل المشهد الروائي في الأردن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كونها تقع، في بعض ملامحها، ضمن الرواية التجريبية التي تأخذ بعين الاعتبار المعطيات الحضارية المعاصرة، وتحاول في الوقت نفسه توظيف المعاصر في حياتنا، وتوظيف المستجدات الإنسانية ضمن سياقاتها.

Abstract

This paper attempts to analyze the influence of contemporary Western civilization, especially the negative side, on Arabic fiction. Consequently, it concentrates on a specific type of this genre as it is apparent in *Just Chatting: Nothing More* by Yehya Ababneh. This novel is chosen as a typical representation of the literary scene in Jordan, and can be viewed as somehow an avante garde work which deals with modern life that depends on humanistic experimentation. Furthermore, the novel can be considered as a good type of the modern age which reflects consciously or unconsciously the revolution of communication. It also provides an outstanding example of self-criticism versus the other intellectually, socially, politically and economically. Moreover, it indirectly urges the new generation to be cautious of the negative aspects of Western culture, and to be ready to change the intellectual

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

mechanism of dealing with tangible reality by confronting whatever changes that may come from the outside world .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

توطئة:

إن ما يلفت الانتباه في الرواية -موضوع هذا البحث - هو تسلط البعد الحضاري عليها واستثمارها لمعطياته، ولهذا سنتناول عبر هذا الاتجاه المفاصل التالية:

النص العتباتي والرواية :

يلفت الانتباه في بعض النصوص الإبداعية تلك النصوص المحايثة لها التي تُستجلب من قبل منشئ النص لهدف وغاية أقامها في ذاكرته، وقد يكون من ذلك تصوراته أثناء العملية الكتابية، أو قبل الشروع بالكتابة. إنه يتوجه فيما يكتب لشريحة محددة من القارئين، أو ما يسمى في نظرية التلقي عند(Wolfgang Iser فولجانج آيزر) بالقارئ الضمني حيث يشير إلى أنه :" من البديهي أنّ أي نظرية تهتم بالنصوص الأدبية لا يمكنها أن تتقدم إلى الأمام بدون إدخال القارئ الذي بدا الآن وقد ترقّى إلى مستوى الإطار المرجعي الجديد، كلما وقعت إمكانية النص السميائية والتداولية تحت الفحص الدقيق، والسؤال : أي نوع من القراء يمكن إدخاله ؟ ...إذا أردنا أن نحاول فهم التأثيرات التي تسببها الأعمال الأدبية والتجاوبات التي تثيرها، يجب علينا أن نسلم بحضور القارئ دون أن نحدد مسبقا بأي حال من الأحوال طبيعته او وضعيته التاريخية، ويمكن أن نسميه -لعدم وجود مصطلح أحسن - القارئ الضمني "(1)هذا القارئ الضمني حقيقة هو المفكر فيه قبل وأثناء الكتابة الإبداعية، حيث يمكن أثناء الكتابة الإبداعية أن يتخيل الكاتب نمطاً ونوعاً من الناس يكتب إليهم، وتكون بمثابة الشريحة المستهدفة، أو كما يرى بعض الباحثين الحداثيين بأن هناك جمهور منتظر يتلقى العمل، إذ يقول: " نكتب دائماً في سبيل أن نقرأ، وما قصدي من الكلمة التي أدوّنها إلا أن يقع عليها النظر، ولو كان نظري، ففي فعل الكتابة نفسه يكمن جمهور مفروض"(2) وليس بالضرورة أن تكون هذه الشريحة هي القارئة للنص فقط ، إذ قد تتنوع أنماط القارئين، ومن هنا تتوزع مستويات القراءة للنص، ومستويات المقاربة والفهم .

نجد ما يسند هذا الكلام -مثلاً - عند (رومان ياكبسون R.Yakbson) في كتابه "قضايا الشعرية"، ومن ذلك قوله : " تقودنا مسألة الثنائية ومكونات النسق الموسومة إلى موضوع التوازي، الذي هو عنصر هام، وعنصر قد يحتل المنزلة الأولى بالنسبة للفن الأدبي ... وهناك إلى جانب هذا سؤال مهم : كيف يمكن أن نحدد اختيار وحدود العناصر المتماثلة " (3)، وكما نجد في كتاب الباحث (بلعابد) الذي قدم بعض طروحات جيرار جينيت وعقّب عليها، في كتابه

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

: "عتبات – من النص إلى المناص" (4) وعند حميد لحمداني في بحثه المنشور في مجلة علامات السعودية والذي أسماه (النص المقدماتي)، ونجده يقول فيما يتعلق بالعتبات: "إن للعتبات حمولة أيديولوجية خاصة، تكون غالباً مقصودة لتوجيه منحى القراءات الممكنة "(5) كما نجد عند عبدالمالك أشهبون الباحث الحديث الذي صدّر كتاباً بعنوان : (عتبات الكتابة في الرواية العربية)(6) وغيرهم .. وقد استثمر الروائي(يحي عبابنة) مثل هذه المعطيات في نصه بشكل لافت كما سنرى.

أ – الغلاف – اللوحة بوصفها عتبة :

يحاول المؤلف – أحيانا- التدخل في اختيار لوحة الغلاف، وبذلك يتم إنجازه بالتعاون مع فنان أو مع دار النشر، وربما يكون لديه هو حس فني لافت، أو ينشأ اتفاق بين الكاتب ومخرج معروف بإخراج الكتب، وهذا التدخل ينجز وجهة نظر يريد تأسيسها المؤلف ليبثها عبر نصه، ولعل العناية بالمداخل وبالعنوانات، والاهتمام بالبدايات تتناغم مع الحاجات النفسية للإنسان، ودرج عليها الكتاب والشعراء من العصور القديمة ، كما نجد في الشعر المحكك، وشعراء مدرسة الصنعة، وقد قال ابن رشيق القيرواني الناقد العربي القديم : " حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومظنة النجاح "(7)، أما في العصر الحديث، ومع تقدم الطباعة والتقنيات الإخراجية والإشهارية، راح الأمر يزداد تعميقاً، للإفادة من ممكنات العصر، فاختيار الغلاف واللوحات، واختيار الكتابات والعنوانات أصبح يحسب لها حساب في الدراسات النقدية، كما سنبين الآن:

في رواية (جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام) -موضوع هذه الورقة - نجد الغلاف يحتوي على لوحة عليها لوحات متداخلة، والباحث الحالي يحاول أن يأخذ منها ما له علاقة بموضوعة النص، وما يرفده من دلالات، فنجد من اللوحات لوحة عليها (لاب توب) وهو جهاز كمبيوتر مصغر يدوي، وتبدو عليه يد تتعامل به، وهو مركون إلى جانب الشخصية المتعاملة معه، ولكن الشخصية المتعاملة لا تظهر، حيث تظهر فقط اليد على الكيبورد، وجزء من رجل لشخصية تبدو مستلقية، حيث تبدو الرجل ممدودة فقط ، بمعنى أن الجسد لهذه الشخصية يأخذ وضع ارتياح، وهذا يعني وجود

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

رغبة لدى الشخصية بتمديد الفترة الزمنية التي تعامل بها اليد مع جهاز (اللاب توب)، ونجد بجانب (اللاب توب)، قلم ومنفضة سجائر مليئة بأعقاب السجائر، ونصف كأس من الماء، وبطاقة نت، وبجانب هذه اللوحة لوحة أخرى تجسد تظهيراً لجملة باللغة الانكليزية، وهي جملة شائعة جداً بين المتعاملين مع الكمبيوتر، ومع النت بشكل عام، وهذه الجملة هي : (www.com) باللون الأخضر، ويلفت الانتباه أن النقطة هنا ليست نقطة، وإنما هي دائرة صغيرة فيها الكرة الأرضية بلون أسود مصغرة جداً، ربما تشير إلى السوداوية التي تلف الكون، وتاتي كلمة (org) على شكل ظلال لها، ثم بظلال أخرى تأتي كلمة (net) باللون البني .

اللوحة الأولى تشي بمدلولات تضع أمام المتلقي عوالم النت، وانشغالات الإنسان به، وتنقل لنا إدمان المتعاملين مع مثل هذه الأجهزة، وتعطي إشارة على رغبة الإنسان في العبور المتواصل للعالم، وقدرته على مواكبة التواصل .

أما اللوحة الثانية، والتي تحتوي على الكلمات، فإنها تزيد من عمق الدلالة والمرموزات التي تتفتح بصرياً وفكرياً، بعد محاولة القراءة لها بهدوء، و يلفت الانتباه أن الكلمات كتبت باللغة الانجليزية، وهذا يعطي مدى سلطة اللغة الوافدة على ذاكرة الجيل، وكيف يستسيغ التعامل معها، ويتعلق بها، وتصبح كما لو هي من تكوينه، حيث نجد، بكل بساطة أن المتعاملين مع النت، والذين يشكلون في غالبيتها الشريحة المثقفة، والأكثر وعياً في عالمنا العربي، أصبحت تتعلق بهذا المنتج وما يبثه من أفكار، وتصبح الذهنية جاهزة للتعامل مع الكيفية التي يكون عليها، وفي ذلك عبور للغة الأخرى ومحمولاتها، وما يمكن أن تتركه في ثقافتنا، ثم إن الكلمات عند ترجمتها، سنجد من معانيها استمرارية البحث والإرسال والتعامل مع الآخر، وليس هذا فقط ، فعند وقوع بصرنا على كلمة (org) وهي اختصار لكلمة (organization)، وهي تعني بالعربية :(المنظمة)، ثم عندما نجد أن النقطة (dot) هي شكل للكرة الأرضية، بلونها الأسود / فهذا يعني أن هناك مرموزات، ودلالات يراد بثها للمتلقين عبر اللوحات، ومنها، أن الكون والبشر على هذه الأرض يتعاملون مع النت، ويصبح العالم قرية صغيرة بالنسبة لهم.

ب - عنوان الرواية والمتن الروائي :

لقد أثبت الروائي بخط عربي اسم الرواية على الغلاف بطريقة غير معهودة أو مألوفة، إذ درجت العادة أن يكتب الروائي، أو صاحب النص الإبداعي عنوان الرواية، أو الديوان الشعري، أو المجموعة القصصية بالخط العربي وباللغة العربية، أو بلغة النص ولغة الكاتب، إن كانت من لغات أخرى، لكن مرجعية الكلمات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

الضامة للعنوان في هذه الرواية جاء بحروف عربية، وجذور تكوينها الدلالية مستجلب من اللغة الإنكليزية، أعني أنها جاءت بهذه الكيفية: (جست شاتنع)، وهذا يفتح أفقاً يستثير القارئ ويحفزه على التساؤل : لماذا هذا الشغب الكتابي على الغلاف، وكيف يكون بلغة هجينة بين العربية والإنكليزية ؟ لا سيما وأن صاحب الرواية متخصص باللغة العربية، كما نعلم، وأكاديمي يدرس اللغة والنحو في جامعة عربية، ثم إن الروائي لم يترك العنوان منغلقاً على لغته الإنكليزية - بوصفه مرجعاً - وإنما أضاف لهذا العنوان الهجين عنواناً موازياً، وجاء بخط مختلف تحت العنوان الانكليزي المكتوب بالعربية، وهو : (ليس أكثر من كلام)، وهنا يكون العنوان مشتملاً على دلالات: عربية وغير عربية في الوقت نفسه، ليبدو الأمرُ للوهلة الأولى وكأن الموضوعة الرئيسية في المتن هي عبثية، ومجرد كلام لا طائل من ورائه .

المسار القرائي لسياقات الرواية تشي بأن الهدف الاستراتيجي يشير إلى النقد الفكري والاجتماعي والسياسي المتداخل مع الحضاري عند تعاملات الجيل المعاصر من الكتاب مع التقنيات الحداثية، وسمات النص الروائي الحديث تشجع على مدخلات من هذا القبيل، فالروائي الذي يمتلك إمكانيات كثيفة يتوسل بمثل هذا لخدمة في نصه، حيث "الروائي يبني عالماً فسيحاً يصور الحياة من خلال تكوين معرفي متكامل، وهو مزيج من الفلسفة والتاريخ، والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس، ويرجع الفضل في لَمِّ هذا الشتات غير المتجانس، وصياغته صياغة إبداعية فنية إلى قلة القيود الشكلية في الرواية"(8)، ومنتج الحضارة الإنسانية كما نرى فيها السلبي والإيجابي، وهذا ما سيتبين في معرض حديثنا القادم.

إن صاحب النص– المؤلف – لم يأت بالعنوان/ العتبة منسلخاً عن نصوص موازية أخرى في المتن، و يحاول أن يقدمها عبر عنوانات ونصوصيات موازية أخرى، وفي ذلك تجسيد لرؤية ناقدة للمؤلف على نصه، وهذا يعطي بعض المفاتيح للنص، وقد يكون لهذا النهج صفات إيجابية أو سلبية، حسب طبيعة النص، والنصوص الموازية التي تم اختيارها نابعة من مساحة الوعي الخالص، كون العنوانات والاهداءات والهوامش ...الخ، غالبا ما تأتي من مرحلة الكتابة الواعية .

إن ما حملنا على هذه الرؤية السابقة – إدماج الوعي مع اللاوعي أثناء الكتابة – وتعدد العنوانات الواعية، وهذا يتفق مع ما جاء في بعض المواقع من الرواية، ومثال ما ذهبنا إليه ما جاء من سياقات موازية في إحدى لوحات الرواية بعنوان: (من يتكلم ؟ من هو السارد)، ومما جاء في بعض مضمون هذا النص

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

الموازي:" انتبهوا! أنا لست المؤلف، ولا السارد، ولا الراوي ولا الروائي، .. ولا أي شيء مما له علاقة بالكتابة، بل أنا بكل بساطة أحمد ابن أبي أحمد .. شاءت الظروف التالية أن أكتب لكم ما حدث بعد هذا؛ لأن والدي عزف عن الكتابة لظروف خاصة ... خرج والدي في الليلة التي انتهى عندها من كتابته إلى مقهى سهرات ..الخ "(9)، والنص طويل .

قبل إبداء الرأي في هذا النص المقتبس من الرواية، يتفتح السؤال المبدئي : لمن يوجه السارد عباراته، أو الروائي المتماهي معه من خلال كلامه، خاصة في القول: (انتبهوا!) .

يتبين من هذه السياقات أن أبا أحمد مثلا عاد مجنونا أو فاقداً للذاكرة بدليل السياق على لسان الابن : " كان كما علمنا قد خرج من المقهى، وهو ينوي العودة إلى البيت، ولكنه توقف عند البوابة الخارجية ولم يتحرك ، بل بدأ يسأل المارة عن هدفه، فقال لأحدهم : - أخي الكريم ! هل لك أن تدلني على مكان سكني..أشفق عليه الرجل، ولذا فقد جاء إلى أصدقائه وأخبرهم بأن شخصا ما محشش، أو مهسهس أو مهستر أو فاقد للذاكرة – لا يعرف أين يذهب "(10)، ويتبين في هذه المسألة وجود إيقاع شكلي ونفسي، حيث بدأت الرواية بالتيه والضياع في المساحة الجغرافية، وضياع المعالم للأمكنة ... وانتهت بضياع نفسي وتشظي للذاكرة الإنسانية لأبي أحمد، و هنا يتداخل النص الموازي مع المتن، كما في السياق التالي : " اعلموا يا أولاد أن أمكم هذه العجوز تكاد تكون مدسوسة، أشك في عروبتها .. ولم يحرك أحد ساكناً، قال إن السبب في هذا أنها لم تؤمن على دعائي ... ثم طلب منا جميعا أن نجثو على ركبنا وأن نؤمن – بقول آمين – على دعائنا .. "(11)، ولم يكتف بهذا بل راح أبو أحمد يعلن أن الزوجة هي السبب في عبوره إلى الشاتنغ، ويراها السبب في كل ما آل إليه من فشل .

مثل هذه السياقات يتداخل فيها ما يشبه (السير ذاتي)، وله محاذيره تقنياً مع المتخيل السردي، وهنا يمكن السؤال: كيف يتدخل الروائي في عمله ويظهر بشكل جلي، وقد حدث هذا في تاريخ الروايات التقليدية، وكان عيبا لافتا في الروايات، وأمثّل على هذا في روايات جرجي زيدان، حيث نجد لديه عبارات مثل (عزيزي القارئ والآن أقول لك ..)، ومثل هذا عند روائي أردني، كما نجد عند هاشم غرايبة في نصه الروائي (المقامة الرملية)، وقد بلغ هذا الأسلوب أوجه عند أدونيس في مؤلفه الشهير: (الكتاب – أمس المكان الآن - ثلاثة أجزاء) حيث يعلن في بداية الكتاب أن ما يكتبه ليس له، مع أنه هو الكاتب والسارد، وفي ذلك مفارقة لافتة، فيقول في تصديره على الكتاب : "مخطوطة تنسب إلى المتنبي، يحققها وينشرها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

أدونيس " ثم يأتي بتصدير – عتبة أخرى بشطر من بيت للمتنبي يقول فيه : " ومنزلٍ ليس لنا بمنزلِ ".(12)

أ- جاء تجنيس العمل وعلى الغلاف الخارجي على أنه رواية. وقد أثبت المؤلف هذه الكلمة في ذيل الغلاف. وهنا أود التوضيح :أن هذا الأمر للوهلة الأولى يبدو وكأننا بصدد قصة طويلة، ولهذا قد يرى البعض أنه أقل من رواية، لكن بعد الأخذ بعين الاعتبار مساحة التخييل السردي هنا ، وفضاء الشخصيات وتحركاتهم المتعددة، وأنها لا تنغلق على أحداث بسيطة تدور حول حدث واحد، وإنما يحتوي النص على شخوص مركبة، بل ومتحولة، كما في شخصية (لويكا) ، وشخصية (إريكا الوهمية)، والمساحة الورقية والزمنية وما إلى ذلك، كل هذا وغيره يمكن تتبعه في ما وراء .

ب - تم تقسيم الرواية في متنها الداخلي على شكل لوحات، وكل لوحة أخذت عنوانا معينا أو عتبة تم التأسيس لها لتنعكس من أجواء النص، وجاء في نهاية هذه اللوحات لوحة بوصفها خاتمة اقترفها / أثبتها الروائي، لتكون نصاً على النص، بمعنى أن تكون نصاً موازياً آخر، لكنه مشبع بوجهتي نظر متداخلتين : هما وجهة نظر الروائي متداخلة مع وجهة نظر السارد للنص، وجاءت هذه اللوحة تحت عنوان: (من يتكلم ؟ من هو السارد ؟) .

مثل هذه النصوص الموازية تحملنا على توجيه الدراسة إلى قنوات أخرى يمكن أن تكشف لنا عن مضمونات المتن ودلالاته والحُزم المعنوية القارة فيه. صحيح أن هناك لوحات وتقسيمات لافتة، ولها فائدتها، ولكن عليك بوصفك قارئاً أن تقوّمها كما لو هي لوحة متكاملة في الذهن القرائي، تتعامل معها لتجد الخيط الرابط بينها، وبين النسيج المتكامل للرواية ليعطيها أبعادا دلالية ممكنة، يصبح النص حسب (R.Yakbson): " نصاً مركباً وغير قابل للتجزئة، يصير كل شيء فيه حسب عبارة بودلير دالاً ومتبادلاً ومتضاداً ومناسبا"(13)، .في الوقت نفسه. وهنا تكمن جمالية النص، ومدى العمق الدلالي له.

الرواية والحضارة بين الماضي والحاضر:

هناك سمات حضارية لافتة تم استجلابها في الرواية، وتم استثمارها على سبيل المتناصات لتدعم استراتيجيات النص الروائي، حيث جاء هذا الاستثمار مدعما لمقولة الرواية الأساسية، ومن ذلك:

أولاً - انعكاس البعد الحضاري العام في الرواية

لقد حاول كثير من النقاد الربط بين الواقع الإنساني والحضاري، وعلى سبيل الإبداع، راح النقد يتتبع مثل هذه التحولات في المنتج الإبداعي، وطبيعي أن تأخذ الرواية مساحة مهمة في هذا المجال، فكان الاتجاه عند بعض النقاد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

سعيهم للربط بين الحضارة من جهة وبين الرواية من جهة أخرى، فهذا (رونالد بورونوف ورويال أوئيلية- R.onallet R.Bourneuf) ، يذكران بأنه : "سواء أكانت الرواية انعكاساً أم تقليداً، أم ترجمة للواقع، أم كانت في هذا الواقع بشدة ..فإنّ جميع هذه التصورات تطالب بدرجات متفاوتة بأن يشير الأثر إلى واقع خارجه، وواقع يؤسس هذا الأثر "(14)، وفي مكان آخـر يذكران: " أن الوعي بالواقع والتعبير عنه، سواء أكان هذا الواقع نفسياً أو اجتماعياً، أو أخلاقياً أو اقتصادياً ... هذا هو السؤال الحقيقي الذي أراد ناقدو الأدب إلقاءه في الخصومة المتجددة باستمرار والدائرة حول الواقعية)(15) ، وتبعاً لذلك فإن هذا الرأي اتجهنا للتوكيد عليه، لأننا نرى في خطاب النص الذي بين أيدينا ينطوي على وجهات نظر تقود لمثل هذه الرؤية التي تنهل من الواقعية، أو الواقعية المعدّلة التي جرى التحوير عليها، ولو بشكل يسير هنا، لتؤسس مرجعية للرواية موضوع الدراسة، وهذه المسألة من الطبيعي أن تتسرب إلى ذهنية المتلقي عند قراءة النص ومقاربته. لقد نجح الروائي عبابنة في كثير من الأحيان على مدار العمل، وفي بعض المواقع التي تؤسس لخطاب صاحبها في توظيف الواقع القريب من المباشرة، لكنه المتماس مع الواقع .

مثل هذه المواقع مثلاً : المواقف السائدة في المجتمعات باتجاه الأنثى/المرأة، وحضور المرأة في الرواية بكيفيات لها أشباه في الواقع تلفت الانتباه عند المـتلقين، حيث كان حضور المرأة باهتاً وسلبيا، والإشارة في الرواية إلى المرأة بهذه التوصيفات غالباً ما تعني المرأة العربية، وفي المجتمعات البسيـطة منها بخاصة، فكانت المرأة العربـية في لوحـات الرواية ممتهنة، لا رأي لها، مقموعة، وهذا الظلم يقع حتى من الرجل المثقف، أو الذي يدعي الثقافة حسب الرواية رغم انخراطه في مسائل حضارية سنتبينها في ممارسته وعلاقاته مع شخصيات غربية، ومن خلال مرجعياته عن الشخصيات السياسية، والأحداث التاريخية والتراثية ..الخ، لنضرب مثالا على هذا النهج في السياق التالي من الرواية، وعلى لسان الزوج، إذ يقول: "والحق أن أم أحمد مظـلومة بمعاملتي معها، فقد كنت أقسو عليها منذ قالت لي : إلّي عليك عليّ في ليلة الزواج الأولى ...وقد قرأت في عدد من المواقع الإلكترونية عن الظلم الفادح الذي تتعرض له المرأة العربية، فهن مجبرات على لبس الشادور الأفغاني والجلباب، وبعض الدول تجبرهن على غطاء الوجه، بل لقد بات بعضهن يُلبس امرأته النقاب دون أن يكون من المصلين حتى الذين هم عن صلاتهم ساهون، بل هم من تاركي الصلاة عمداً.."(16) .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

الزوج هنا وكما هو واضح، رغم اطلاعه وعلمه أنّه يقسو على الزوجة، ويشعر بظلم المرأة العربية إلا أنه في تعامله يمارس عليها الفجور والكذب والإقصاء والقسوة، وهذا الحوار يبين ما ذهبنا إليه من علاقة متوترة، وغير متوازنة بين الرجل والمرأة العربية، حيث تقول الزوجة لزوجها وهي مرافقة لزوجها في الرحلة، عندما يصب جام غضبه عليها لأنه أخطأ مسار الطريق : " حظي زفت، ماذا جنيت حتى تلطمني وأنا نائمة ؟ اتق الله يا رجل، حاولت أن أشرح لها - يقول الزوج - ولكني فشلت أيضاً، فقد استغرقت في الضحك المزعج وأنا أقول لها: لعنة الله عليك وعلى الشيطان ! لماذا لا تعرفين القيادة حتى أرتاح أنا من عناء القيادة ؟ فقالت لي من خلال دموعها : السواقة ؟ قتلت حالي حتى أتعلم ، وأنت تقول ما في حريم يسوقوا.. "(17) ويتابع في الحوار نفسه على لسان الزوج : " لقد صدقتْ ولكني أنسى كثيراً من الأمور هذه الأيام، فقد رفضتُ كل التوسلات التي تُلين الحجر لأعلمها القيادة، وأصررت على بقائها وراء المجلى كما كانت تقول.."(18) . ومن هذا الحوار بين المرأة والرجل تظهر قصدية الرجل في إلغاء شخصية المرأة وتهميش دورها الإنساني، ويتناقض الرجل مع نفسه، ومثل هذه الأمور على مباشرتها في الحوار، واقترابها من مشهد قد يكون في الواقع مثيلاً له، إلا أنه في باطنه ينقل لنا صورة اجتماعية شائعة في المجتمعات العربية، وينقل لنا بنية التفكير الذكوري تجاه الوجود الأنثوي.

كما يمكن أن يؤخذ هذا العمل الروائي بهذه الكيفية أنموذجاً على ما يجري في المجتمع وما تمرره الحضارة، ومدى تجاوب الإنسان وتفاعله مع بعض القضايا وصمته عن قضايا أخرى، كما يمكن أن يؤخذ هذا العمل إلى جانب أعمال أخرى راحت تتحرك في اتجاه التجريبات التي تمزج -كما نرى - بين الاقتراب من الواقع والمعاصر والابتعاد عنه في آن، وهذا يعد من التوجهات المشروعة للكاتب بشكل عام ، فهناك تجارب سابقة على تجربة هذا النص، تنهل من مشتملات الواقع الحضارية، لا سيما العادات والتقاليد الوافدة من العالم الحضاري، والصناعي بشكل خاص، حيث جاء من هذا العالم تدفقات حضارية مؤثرة في واقعنا الإنساني بشكل عام، معرفياً وسلوكيا وثقافيا، وبما في هذا العالم من تحولات الحضارة ومنتجاتها المتسارعة .

هذا الاتجاه الذي أقامه العالم الروائي، وقصد إليه الروائي تمّ بنتيجة ملاحظات الروائي باتجاه تغير ذهنية الإنسان في هذا العصر، وتحولات تفكيره وثقافته، ولإيمانه بأنه يمثل انعكاساً لحضوره ولتمثله في الواقع والحياة ، ولأنه يرى بأن " الرواية هي في الأساس نوع من مرآة الحلم التي يحاول فيها الروائي أن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

يعكس نفسه الجوهرية ...قائلاً لا تستطيع أن تخلق إلا نفسك"(19) لذا نراه يتمركز في الحاضر المتقدم معرفياً ومدنياً وفكرياً، وكما نعلم أن الرواية هي الأكثر امتصاصا للأجناس والرؤى المختلفة، فظهرت أعمال روائية تتحدث عما يمكن أن يكون، ولا تكتفي بما كان أو كائن ، ومن هذه الأعمال في الأردن: عمل الروائي (محمد سناجلة) في روايته الرقمية (ظلال الواحد)(20) التي تُعد بحق من أوائل الروايات في العالم العربي التي تعاملت موضوعيا وتقنياً مع عالم النت والكمبيوتر وعالم الشات، وأخذت بعين الاعتبار تمثلات إنسان العصر المسلح بقيم معرفية متحولة بل سريعة التحول تبعاً لسيرورة الحضارة والواقع المتغير باستمرار، وهناك عمل آخر للروائي صبحي فحماوي في روايته (الاسكندرية 2050)21) ، وفي هذه الرواية يستبق الأزمنة، ويقذف بالأحداث للمستقبل، ويقدم شخصيات متخيلة، لا سيما شخصية مشهور الشهري، الشخصية المركزية التي تطمح لعالم غير ملوث ونظيف، بحيث تصل هذه الشخصية إلى ابتكار خيالي لإنتاج الإنسان الأخضر في مختبر في المستشفى، وهذا بالطبع مأخوذ من التجريبات التي وصل إليها علم الطب من خلال تعاملاته مع الجينات، وهناك أعمال خارج الأردن، ومثالها عمل الروائي قصي عسكر في روايته (آدم الجديد)(22) ، رواية من الخيال العلمي، وهي تقذف بالشخصيات والأحداث إلى المستقبل ، كما فعل الفحماوي في روايته، حيث تجري بعض أحداثها كذلك في المستشفى على يد طبيب يحاول ابتكار إنسان نظيف كذلك اسماه (آدم الجديد)، كل هذا وغيره يُبين مدى إفادة المبدعين من العالم المعيش حولهم، وواقعهم المتغير، ومن التقدم التقني والحضاري المتجدد .

ثانياً : الدمج الخيالي والحضاري في الرواية

لقد توسل يحي عبابنه الروائي بمسألتين ليتخلص من الرواية التسجيلية، والواقعية المفرطة، والوثائقية، ولم يكرر كتابة الرواية الغرائبية والعجائبية بشكل كلي أو تقليدي، ولهذا كان يقترب مما يمكن تسميته عند البعض بـ (الواقعية السحرية) حسب الشنطي مثلاً، حيث يرى أن الكتابة في هذا الاتجاه تعطي لذة للنفس ومتعة لافتة، وها هو يذكر: " الواقعية السحرية تتبدّى في الأعمال الأدبية التي تعبر عن رؤية كونية سحرية للعالم، فتكون رواية تمّحي فيها الحدود بين الأحياء والجماد، وبين الثقافة والطبيعة حيث تكتسب الأشياء والظواهر من الخواص والخبرات المميزة " (23) وقد حاول الروائي الإفادة من مثل هذه المعطيات والمرجعيات، فأفاد من الخيال العلمي ولكن بشفافية قريبة من الواقع، وأفاد من الغرائبي بقدر

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

محسوب وغير متسلط على النص، ولهذا حاول الروائي في بعض المواقع التلوين من هذه الجوانب، محاولة منه لخدمة الهدف ووجهات النظر التي سترد على لسان الشخصيات، أو على لسان السارد بما يخدم الموضوع، وحتى لا تخرج الرواية عن استراتيجيات كتابتها .

لقد حاول الروائي العبور إلى عالم ما جادت به الحضارة الإنسانية، وفيه مساحة مهمة من الخيالي والغرائبي، وهو عالم النت وصفحات التواصل الاجتماعي ليكون عالما افتراضياً خيالياً في بعض الأوقات والسياقات في الرواية، ولم يستثمر هذا المعطى بشكل متواصل، وإنما بين ثنايا العمل الروائي، حتى لا يشتت ذهنية القارئ في التواصل مع الأحداث ومفاعيلها، وبحيث لا تؤثر على المسار العام، وحاول التنويع في تجاوز نمطية الشخصيات، عبر تخيلاته السردية الملقاة على عاتق الشخوص، لكنه لم يوظف شخصيات تغرق كثيراً في مسائل اللا معقول، وبقيت شخصياته ممكنة التحقق، ولو عبر الخيال القريب، ويمكن مقاربتها وتمثلها في شخصيات شبيهة في العالم المعاص، وفي الوقت نفسه اتجه إلى توظيف أماكن مفترضة وأفضية متصورة، رصدها وجعلها أمكنة عامة وخاصة، ومثال هذا النهج في توظيف الروائي لفضاء عالم الشاتنغ المفترض، وصفحات الفيس بوك، وهي أمكنة افتراضية، متخيلة في مكوناتها ودلالاتها، لكنها محسوسة ومفهومة عند التعامل، وهي نتاج حضاري إنساني، لكنه النتاج الذي يمكنه أن يكون له حدان : سلبي وإيجابي .

قد يظهر سؤال مبرر في سياق القراءة لرواية (جست شاتنغ - ليس أكثر من كلام)، وهو: لماذا الانحراف باتجاه الخيال و اللامعقول حتى في بعض لوحات الرواية؟ وللإجابة على مثل هذا السؤال أو غيره علينا أن نعرف ما الفائدة المتوخاة من الحديث .إن من غاية الكتاب - الروائيين والشعراء - جذب التلقي لبث الفكر وغايتهم " الإفادة والإمتاع أو إثارة اللذة ، وشرح عبر الحياة في آن واحد.(24) على حد تعبير الناقد الروماني والشاعر(هوراس Horace) ، أو كما يرى ناقد حديث (R.Barthes) ، راح يفرد كتاباً فريداً وخاصاً بهذا الموضوع بعنوان "لذة النص" حيث يقول : (إذا كنت أقرأ هذه الجملة، وهذه القصة، أو تلك الكلمة، فلأنها كُتبت ضمن اللذة، فهذه اللذة لا تتعارض مع عذابات الكاتب، ولكن ما هو قولنا في العكس منه؟ هل الكتابة ضمن اللذة، تضمن لي أنا – الكاتب- لذة قارئي أبداً ؟ ويقع على عاتقي إذا أن أبحث عن هذا القارئ، أن أغازله من غير أن أعرف أين هو، وبهذا يكون فضاء المتعة قد خُلق"(25)، فالكاتب أثناء الكتابة يفكر بالهدف، وبالقارئ غالباً .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

اللامعقول والخيال العلمي - إذا كان شفيفاً ، حضارياً - واستُثمر في سياقات محددة ومعقولة في النص سيكون جاذباً للتلقي والمتعة، وفي الوقت نفسه يحمل القارئ على الترحل عبر الفكر والتأمل، حيث المباشرة المتكررة، وتسريد الواقع إنشائيا يبعث على الملل، فالنفس البشرية في طبيعتها تميل للتغيير والتحول. إن حياتنا وحضارتنا تحتمل مثل هذه الأشياء، أو كما يقول باحث حديث: " إن الحياة – الآن – غير معقولة لعدم القدرة على فهمها، والوقوف على ما فيها من مظالم وحماقات "(26). وعليه لا مشاحة ولا غرابة في استثمار معطيات الخيال والغرائبي في النصوص، ما دامت تؤدي الغاية والهدف منها، ولم يكن العبابنة إلا واحداً من الذين استثمروا هذا النمط من الكتابة، كما استخدمه المبدعون من الكتاب والشعراء وكتاب الرواية والقصة ، وهذا من سمات عصرنا وحضارتنا التي نعيش فيها حيث " تتنازع كثير من أجناس القص الروائي، والقصصي الحديثة، تقنيات السرد الحداثية والتجريبية التي من أبرزها السرد العجائبي والغرائبي، وهذا النوع من السرد يمكن رصده ضمن سياقات متعددة، وأهداف متنوعة، وبنى رؤيوية متعددة، تتفارق وتتقاطع حيناً آخر، لا معقول ومستحيل ومتردد"(27). مثل هذه الكتابات تعطي تلوينا وتنويعاً على أساليب كتابة الرواية في الأردن، ويمكن أن تعد أو تضاف إلى سلسلة الأعمال التجريبية التي راحت تأخذ طريقها لدى الجيل الجديد والمعاصر .

"فالروائي غالباً ما يقف من مجتمعه موقف الشاهد، إلا أنه شاهد غير سلبي، فهو يصف ويحلل الأبنية الاجتماعية، ويرصد مواطن الخلل والاضطراب في هذه الأبنية " (28) وسنحاول التمثيل على ما ذهبنا إليه عبر رؤية تتوضح بالقراءة وتأخذ مداها في التأسيس لعالم روائي متجدد.

الروائي - وفقاً لما ذهبنا إليه- لم يكتف برصد الواقع، وتوظيف بعض الأحداث التي تبدو معقولة ومنطقية، وربما لها جذور في عالمنا، ولم يكتف بشخصيات قد نجد نماذج مشابهة لها في الواقع، وإنما راح يتابع توظيفاته من خلال افتراض شخصيات وأمكنة متخيلة، أو مستجلبة من عالم متخيل أو متصور على أقل تقدير أو له مرجعيات في تراثنا وحضارتنا / ووصل إلينا عبر السرود المتعددة، وعبر المدونة العربية من السرديات الزاخرة بالقصص والأخيلة والحكايات التي تعبر لعالم الخرافة واللامعقول، وليس" ألف ليلة وليلة" ببعيدة عنا في تذكرها، فبعض الأمكنة مثلاً كان واقعياً بشكل لافت مثل عمان إربد ...الخ، وبعضه كان واقعياً وخيالياً في الآن نفسه، ومن هنا يتم تسجيل الانحراف عن الواقع، ومن ذلك المدن الأردنية المختلفة كما نجها في الرواية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

أما عندما تجد مكاناً معروفاً جغرافياً، وفي ذاكرة الشخصية والسياق الروائي يجري تحويره او إلغاؤه أو يضيف عليه شيئاً غرائبياً، فهنا يبدأ التخييل وتبدأ لذة الكشف، ومثل هذا يتطلب على مستوى القراءة الناقدة معالجات تتناسب ومثل هذه .

الأمر لم يتوقف على الأمكنة، إذ راح أيضا ينصرف على الشخصيات والأحداث داخل الرواية، لهذا جاءت بعض الشخوص افتراضية، وهمية، حلمية عبثية ، وإن بدت في بعض المواقع كأنها حاضرة أمامنا، ومثال هذا :شخصية (لويكا) الألمانية، و(ريكا) الأمريكية، ولم يكتف بخياليتها البسيطة، بل جعل منها شخصيات خيالية مركبة، متقلبة، تنسلخ مما هي، وتنقلب إلى ذات أخرى، ومن ذلك شخصيات موجودة فقط في عالم وهمي، رغم حضورها المتجدد على صفحات الفيس بوك التي تتعامل معها الأسرة كاملة، ولا سيما العاشق لهذه الشخصيات الوهمية، ويبلغ الأمر مداه عندما تكون هذه الشخصية العاشقة هي الشخصية المتحولة والمتنامية، بمعنى الشخصية المركزية (أبو أحمد) بمقابل (لويكا) التي بدت شخصية ذكورية، وبعد مسار السياقات النصية، وما يواكبها من أحداث، نجد أنها تتحول إلى شخصية أنثوية بامتياز، والتبرير أن الصور التي ترسل وتشاهد على فضاء الشات، وفضاء صفحة الفيس بوك صور ليست حقيقية، فكانت لويكا ترسل له ما تشاء وتحاوره، وتمرر له الأفكار والرؤى، ولم يكتشف أبو أحمد أن المحاور المقابل هو أنثى أو ذكر إلا بعد زمن طويل، حتى هذه المعرفة جاءت مبتورة ووهمية، وهذا الانقلاب كان له دلالات رامزة وهادفة في الاتجاهين: الفكري والاجتماعي، على الصعيد الموضوعي، وفني وموضوعي على صعيد التحليل .

تبدأ الرواية من أحداث تجري لأسرة بسيطة تعيش في مجتمع معاصر، تتكون من خمسة أشخاص :الأب والزوجة والأبناء الثلاثة:(أبو أحمد وأم أحمد وأحمد وأيمن ووسيم)، عائلة ليست كبيرة، يعمل الزوج محاسباً في إحدى الشركات، ويتخذ الأب صورة الشخصية المركزية التي تدير أحداث العمل، وتسهم الأحداث الجزئية والبسيطة والمركبة في الدوران حول هذا الشخصية النووية، إن جاز التعبير، وتبدو للوهلة الأولى وكأنها – الشخصية المركزية هنا، تحكي سيرتها، وسيرة العائلة، لكن مدار السيرة هنا في غالبيته يجري على اشتغالات الأب في الحياة وذكرياته، ويكون مسرح الأحداث والمشاهد في مدن متعددة، كما أسلفنا، مدينة إربد غالباً بأمكنتها الجزئية خاصة البيت وشارع الجامعة، ومن ثم بعضها في عمان، بوصفه مكان عبور كما كان في الرحلة،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

والأمكنة الأخرى المتنوعة تأتي عرضيا، مثل البتراء والعقبة والصحراء، ومدن تأتي إلى الذاكرة خارج الأردن مثل القاهرة، وسبتة، ومليلة والسعودية ..الخ، هذا فيما يتعلق بالأمكنة التي تحيل إلى أماكن واقعية بعينها، وبمقابل هذه الأمكنة هناك أمكنة تأتي بشكل موازٍ يستجلبها الروائي من عالم الخيال، لكنه الخيال الممكن التصور .

تنطلق الحركة الأولى لأحداث الرواية من المرض الذي يصيب جسد الابن الأكبر (أحمد)، وهو ارتفاع في درجات الحرارة، ولا تفلح المحاولات لدى الأسرة، وخاصة الأب، في تخفيض درجة حرارة جسد الابن المصاب، رغم العلاجات وزيارة الطبيب، وبالتالي تكون النصيحة الطبية من قبل دكتور متخصص بأن يقدم نصيحة للأب ومفادها أن يذهب في رحلة ليرى الابن اللحم الأبيض، وهنا يبدأ الخوف على مصير الابن، والتفكير في الطريقة التي تنقذه مما هو فيه، ومثل هذه الجملة المتضمنة للعلاج (على الابن أن يشاهد اللحم الأبيض) تحيل إلى مرموزات تبدأ بالنساء، وتمر عبر ما يراه العربي البسيط، والإنسان الذي يعيش في بيئة بعيدة عن التمدن والحضارة، للسائحين والسائحات من الأجانب، لا سيما الذين يملكون البشرة البيضاء، وتشير في باطنها إلى عالم العبث الشبقي للمراهقين من جيل الشباب الضائع، الباحث عن الملذات دون هدف ..الخ .

الأب وفق هذه المعطيات عن ابنه، وما يرافقها من مشاعر له وللأم، يقرر الذهاب في رحلة علاجية، وفي تصوره أن يأخذه لمشاهدة مناطق سياحية، يؤمها السياح الأجانب، فيقع اختيار الأب على رحلة باتجاه العقبة ومرورا بالبتراء، وينتهز الفرصة ليأخذ العائلة جميعها، ضمن المركبة الوحيدة التي يمتلكها، وتكون الرحلة، التي سيتخللها أفضية واقعية وخيالية، وتسريد متنوع لأحداث ووقائع متنوعة، بعضها واقعي والآخر خيالي عجائبي، وكل ذلك تثويراً لمسائل هادفة تمضي إليها الرواية، فكرية وسياسية واجتماعية ونفسية ..الخ .

ثم يكون لهذا الفتى /الشخصية إدمان أكثر على النت، هذا العالم الذي كان ينشغل به افراد الأسرة جميعاً، ويصبح لكل واحد عالمه، وهو العالم الذي ينغلق عليه النت /الفيس بوك، والتويتر، وما إلى ذلك، بمعنى أن نكون إزاء أسرة مفككة وإن كان يحتضنها بيت واحد، فلكل فرد من أفراد الأسرة عالمه الخاص وطقسياته وأفضيته وذهنيته الخاصة، وكل ذلك ناجم عن الوافد من التقنيات الحضارية، وما أنتجه عالم الصناعة والعولمة، وما أفرزته لنا الحياة، ومن الانخراط في المعاصرة، ومحاولة اللحاق بتفكير الآخر وتقليده، مهما كلف الثمن، ولهذا كان يتعين على الأب أن يشتري لكل واحد من الأسرة (لاب

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

توب)، لينعزل بنفسه عما عداه، ويكون هذا (اللاب توب) مُشكلاً لعوالمه وثقافته وبنيته التفكيرية، وبالتالي تكون سلوكياته نتاج أدوات وآلات وتفكيرات وافدة، منقطعة عن تراثه وتاريخه وحتى مجتمعه، وهذا ينطبق على كلّ واحد من أفراد الأسرة الحاضنة ، وفي ذلك إشارة إلى تشتت وتشظي الإنسان بفعل الإنسان، وهذا بالطبع يأخذ مساحة ليست بالقليلة في النص الروائي

نعود لرحلة العلاج للابن المصاب ، وإصابته وفق ما يبدو من تلوثات الحضارة، وعالم النت، وتبدأ الرحلة، بعد استشارة الطبيب باتجاه البتراء والعقبة، وهنا يبدأ التوسل بالعالم الموازي الصادم للواقع لإعطاء مساحة من المتعة للنص

. في رحلة العلاج تشتعل الفكرة الأولى لعبور الخيال بضياع المكان، ويأخذ الخيال مداه، وفي ذلك تشكيل لمساحة مقابلة للمساحة التي استنزفتها الرواية في تسجيل الوقائع والأحداث، حيث الأسرة عندما تصل إلى مشارف البتراء تضيع معالم الطريق، أمام الأب، بوصفها قائداً للرحلة وسائق المركبة، وتضيع معالم الأبنية والآثار .الخ، ومثل هذا يحدث للعقبة عندما يتوجه اليها، بعد ان ضاعت معالم البتراء وما فيها من مواقع وعوالم تاريخية إنسانية هامة ، فتغدو صحراء قاحلة لا حياة فيها إلا من بعض البدو المتواجدين، أومن راعي غنم هنا أو هناك، أو شرطي على طريق صحراوي. المكان الذي يشكل فضاء الأحداث في مسار الرحلة مجدب، والزمان أكثر جدباً، هذا ما تلاقيه الأسرة، حيث تبدأ المعاناة ، من جوع وعطش وارتباك .

وتأخذ الرحلة في حالة السفر /التيه، حالة المأساة حتى أن الشخصية المركزية – السائق /الأب والعائلة معه، يصاب بداء النسيان والضياع في ذاكرته، بسبب الصدمة والدهشة من فقدان الأمكنة، فراح يطرح أسئلة غير واقعية، ومن ذلك سؤاله للزوجة بعد أن لطمها لتفيق وهو في السيارة : " قلت لأم أحمد : - أتذكرين يوم كنا في المدينة المنورة يا أم أحمد ؟ نظرت إلي أم احمد وقد بدا على وجهها كثير من الاستهجان، ثم استغرقت في ضحك مقيت، وقالت: - اسم الله عليك .. قلت لها : لماذا اسم الله علي ومش على أبوك وعلى ألف واحدة زيكّ ؟ - قالت - مالك يا رجل متى رحنا على الحج أو العمرة، موتتني قد ما طلبت منك الرحلة المباركة " ويتابع في سياق آخر من الضياع يوجه الكلام لأحمد قائلاً، بعد أن قال له خوفاً من الضياع: لماذا لا تعود يا أبي ؟ فقال: " أنت ولد جاهل، ما يدريك عن الرحلات العامة ؟ عندما ذهبت أنا وأمك إلى المغرب، قدت السيارة بسهولة حتى حطت رحالنا في سبتة ومليلة .. نظرت أم احمد إلي بنظرات زائغة، ثم قالت: يا خوفي منك يا...متى اخذتني إلى

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

المغرب، أخاف يا أبا أحمد أنك تأخذ الثانية .. شعرت بالخوف قليلا، فقد انزلقت في الحديث عن المغرب، وأنا حقيقة لم أصطحب أم أحمد أو غيرها إلى الرحلة ..." ، ويتابع الحديث قال أبو أحمد لزوجته في سياق الضياع : " أنت خير من يعدُ الشيش طاووق واللازانيا، فقالت متسرعة – طاووق ولازانيا؟ّ ما الذي تتحدث عنه .. أدركت أنني أفسدت عليها مزاجها، فمثل هذه الأكلات لا تجدها في الأردن إلا في المطاعم ، فضحكت قائلا : هل تعتقدين أنك قد الشيش طاووق واللازانيا ، انت شغل مرقة عدس ، وطبخ روس وكرشات ...صحت ام أحمد ثم قالت :"يا خسارة تعبي معك.."(29) .

يمكن التساؤل بعدما سبق من حديث :هل ضاع التاريخ مع ضياع الأمكنة والمعالم ؟ وهل ضاع الإنسان وتماهى وجوده وصار عبثيا عبر فراغ كوني قاحل ؟ وهل ضاع العقل ولم يعد فاعلا ومجدياً، حيث الشخصية لا تتذكر، وتصاب بداء التيه والنسيان، حتى كلماتها تختلف عن الكلام العادي الواقعي ؟ مثل هذا وغيره من الأسئلة يمكن أن يظهر في ذاكرة المتلقين، حيث مشتملات الكلام في سياق الشخصيات التائهة والتي تعاني، تشير إلى أن سبب الضياع والتيه هو نسيان الأب حالة الفقد التي يعاني منها، هو غير متوازن لأنه في الحقيقة أب منشغل بعوالمه الخاصة، لا يفكر حقيقة بأسرته، وذاكرته منشغلة بعالم النت والشات، ومن يراسلهم على فضاء الفيس بوك والنت بشكل عام، وتنشغل ذاكرته بعلاقات غير مجدية وعبثية، مع شلة له أصدقاء عبثيون، يقضون وقتهم في شارع الجامعة، في مقاهي النت والعبث بين شرب المسكرات واللعب والعبث، ومتابعة امور لا تجدي نفعاً على صعيد العائلة، ولا على صعيد الحياة الهادفة .

ومن الحوارات السابقة، يمكن الإشارة إلى تلك العوالم المنسية التي أفاضت بها مسيرة الرحلة، ومنها ذكر المدينة المنورة والحج والعمرة ...الخ ، ثم ذكر المغرب العربي، هذه الذكريات الوهمية التي تقفز لذاكرة الشخصية المركزية حقيقة لا وجود لها في عالم الواقع، ولهذا تستهجن ام أحمد مثل هذه الأماكن وورودها على لسان أبي أحمد، سياق الحديث في أعماقه يريد أن يحيلنا إلى جذورنا في الجزيرة العربية، وإلى حضاراتنا البائدة في المغرب العربي، وسنجد في حوارات اخرى تقود إلى عالم الأندلس، وضياع الأندلس، عندما يذكر سبتة ومليلة .. الخ، مثل هذه الاستحضارات التاريخية لا تكون عبثية في حضورها في جسد النص الروائي، وإنما تشتت وضعنا بوصفنا أمة تتخلى عن تاريخها وتراثها، يبلغ التيه مداه عندما ترد على لسان الشخصية المركزية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

كلمات غريبة تبيّن عمق المأساة في نسيان ذاتها، ومن ذلك السياق :

" كان منظر أحمد مزريا في تلك الساعة ، - بسبب المرض – وبدا متعجلاً بعض الشيء، فسألني :

- هل مُنيت هذه المنطقة بزلزال ؟
- قلت كأنني لم أسمع صوته : طيب أين سكان المنطقة ؟ أين أهل وادي موسى؟
- لقد خطر ببالي أنني أضعت الطريق التي تسمى عين موسى، وبعد قليل نفضت عن خاطري هذا الأمر ...

.(30)

وتتابع الشخصية السؤال من فتاة صغيرة في الصحراء – ترعى الغنم بعد أن تسلق جبلا ليتكشف الأمر- : "يا عمو أين الطريق إلى البتراء ؟

لم تتكلم كلمة واحدة إطلاقا، بل زاد حذرها قليلاً وأجفلت مني ..

– أين البتراء يا صغيرة - .... petra Where is ...

- لاريب في أن هذه البنت مجنونة، البتراء لم تكن موجودة هنا يوما ما، ما هذا التخليط ؟؟..(31).

ويبلغ الضياع مداه عندما يسير في السيارة في الطريق الصحراوي لساعات طويلة، فبدل أن يقطع خمس ساعات، سار لعشرين ساعة، عبر خلالها حدود دولة أخرى، ويموت إحساسه بالزمن، أو لا يريد أن يعترف بما عليه من ضياع، ويصبح الأب في مواجهة الأسرة التي تعاني هي الاخرى من الضياع، ولا يحسن التصرف، ويبدو عليه الارتباك، وها هو يقول – أبو أحمد - :" وقد ظلت السيارة تطوي الأرض حتى أشرقت الشمس.. ولم يكن بد من التوقف ، فقد بدت الأرض كما لو لم تكن مكتشفة بعد، فليس من دليل على العمران، ثم سمعت أزيز طائرة، اقتحمت هدأة الصحراء، فتابعناها بعيوننا وهي تختفي إلى الغرب منا..." .(32)

مثل هذه السياقات تحيل إلى حزم دلالية كثيرة، يمكن أن يصل إليها القارئ . إن اختفاء البترا والعقبة والمعالم، ربما يقود إلى أبعاد تحتاج إلى التفكير، فلماذا يغيب ويتماهى مكان مثل البتراء، وبعض الأماكن التاريخية والتراثية، والمعالم المعروفة للناس عن الأنظار ؟ ولماذا تصاب الشخصية المركزية بالدهشة والصدمة لغياب الأمكنة وغيرها ؟ وما أثر إيقاع هذا الغياب على الشخوص ؟ وما هي الدلالة ؟ مثل هذه الأسئلة وغيرها مشروعة، فهل هو غياب للتاريخ العربي وجذوره هنا ؟ وغياب لحضارتنا وحضارة الامم من قبلنا، وهل هو غياب للذاكرة العربية والإنسان العربي الذي راح يضيع في هويته وعالمه، حيث الأنباط وجذورهم العربية،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

و ما تحيل اليه البتراء، ومثل ذلك الصحراء العربية .

لكن السؤال المهم هنا كيف أفاد الروائي من معطيات الحضارة والمنتج الإنساني، وكيف تمكن من دمجها في النص الروائي بهذه الكيفية، فهو لم يكتف بالبقاء في سرود تنهل من الواقع المعيش، والتاريخ القديم، أو الحاضر الباهت، ولم يرصد الأشياء كما هي، وإنما كان اختياره للأشياء قصدياً، وبالقصدية نفسها تعامل مع الذاكرة الحضارية والتراثية، سواء أكانت عربية إسلامية، أو عالمية وإنسانية ، ولم يحاور هذه الأشياء بتقليدية، وإنما ذهب بنا إلى محاولة القفز للأمام استشرافاً للمستقبل، وكنت أتمنى أن يغرق في المستقبلية والتأمل فيما يكون أكثر من التمركز على تخيلات لا تبتعد كثيراً عن الواقع، ولعل السبب -وربما يكون معه الحق -هو محاولة الروائي التمركز حول المشكلات المعاصرة التي يعاني منها الإنسان العربي، والفكر العربي خاصّة بعد ما انتجه الربيع العربي من.... .

إن معطيات المدينة والريف ومنتجهما يعطي مزيدا من التحولات الحضارية لما لها من أثر على الإنسان. يقول (جون هنري) : " لقد أصبح القول بأن الرواية هي كائن مديني – نسبة إلى المدينة – الضخمة بديهة في نقد الرواية، لا سيما رواية القرنين التاسع عشر والعشرين "(33)، ولإعطاء أمثلة على ذلك، تلك الحوارات الجارية مع الشخصية التي تعلقت بها الشخصية المركزية، التي تسرد ذاتها، غالباً ، فأبو أحمد – الشخصية المركزية – عند حواره مع (لويكا) الألماني/الألمانية تشير نحو هذا الاتجاه ، فكان أبو أحمد يركز في الحوار على موضوعة الشهوات الذكورية، ومغامراته العاطفية مع جارته (ف) ، وهي شخصية ثانوية، تلك التي كانت متزوجة من ساعي بريد بعد أن كانت مطلقة من جزار، وهي في الوقت نفسه على علاقة بحبيب جار لها، كان يدخل إليها من فتحة في جدار، كل ذلك إضافة لعلاقة المحاسب أعني أبا أحمد، والسياق التالي يشير إلى هذه المسائل حيث يرد على لسان (أبي أحمد) ما يلي : " نامت أم أحمد، فاتصلت بالسيدة (ف) للاستفهام منها عن طبيعة الدايت الذي تتبعه، فلم ترد عليّ، فاعتبرت أن هذا الأمر يعود إلى حالة الدايت التي نتشاتى بها، ... والحقيقة أنني كنت أريد ان أسألها عن عرش الحب، وكيف تربّعت هي على العرش بعد ان ملكته، وكيف تربّعت مع ثلاثة رجال متسلسلين : زوجها الأول اللحام، والخبيث الذي نقب سور الحديقة، وساعي البريد- مختار – زوجها الحالي، وما إذا كانت تخطط للأمر معي أيضا "(34).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

وفي حوار مع (لويكا)، شخصية ثانوية أخرى نجد السياق التالي، على لسان أبي أحمد : " هل أكره الألمان ؟ معاذ الله ، فنحن العرب أقرى الناس للضيفان، نحن معزِّبون- من الطراز الأرفع في التاريخ ... قلت لها : لقد حلفت للسيدة (ف) لأنها لا تريد أن تخس – رجيم- زاعمة أنها خفيفة من دار أبيه،..قالت لويكا بدينا نهرجٍ، يا عزيزي إن (ف) هذه حبر على ورق، وأنت لست متأكدا من وزنها ...قلت لها : لويكا ! لقد شاتيتها مرات كثيرة، وزارتنا في البيت، وشكا زوجها مني وبكى . وأخبرتها بأن زوجها لا يشك بوجود علاقة غير إلكترونية بيننا، وعرف أنني عيرتها بما حدث بينها وبين جارها أيام كانت زوجة للجزار، كما عرف انني عيرتها هي ذاتها، وهددتها بإفشاء سرها لابنها الوحيد (وحيد) .... قالت لي – لويكا – لماذا غضبت هكذا ؟ لم أقصد شيئا، فقط أردت ان أنبهك إلى ضرورة التخلص من أوهام الخيال التي تلبسك حبيب قلبي! انتم العرب مصدومون بحقيقة البشر . أنتم منفصمون، واخاف عليك بعد هذه الصحبة أن تنفصم عن ذاتك وتنشطر إلى ذوات كثيرة "(35)

واللافت أن السيد/السيدة (ف) كلما حاول أبو أحمد أن يحدثها عن الحب والجنس ...الخ فإنها تقطع عليه الحديث، وتتكلم معه عن واقعه وعن السياسة خاصة، وعن الغرب ومنتجاته ومفاعيله الحضارية، إضافة إلى العزف على أوتار لا تروق لأبي أحمد لأنها تستغل ما تعرفه عن العربي، وترى فيه شخصية طيبة، وغير واقعية، وشخصية ذكورية، ويمكن استثمارها، وكان هذا يزعج العربي الشبق، أعني أبا أحمد هنا، وفي ذلك صورة لافتة لنقد بنية التفكير العربي.

هذا الفرق في بنيات التفكير بين شرق وغرب، وخاصة فيما يتعلق بالعربي الشرقي، تبرزه الرواية بشكل لافت وصولاً لنقد الذات، ونقد ما هو معروف عن العربي من تهافت على الأبعاد الجنسية والعبثية، ذلك أن "الرجل العربي مجروح رمزياً وجسدياً على يد الغرب، وإذا كان خاضعاً من الناحية السياسية، فإنه سيكون مهيمناً من الناحية الجنسية رداً على ذلك ، إنه التمثيل الاستعاري للصراع بين العالم العربي والغرب الكولونيالي – وما بعد الكولونيالي "(36)

ويبدو تركيز الرواية أيضا على سلوكيات الإنسان عبر حضارته الملوثة، ومثال ذلك الحديث عن قضايا جنسية ومثيرة فيها، فكان أبو أحمد يدمن الرجوع إلى المواقع الإباحية على النت، ويتواصل مع نماذج تشجعه على هذا، وتزيد من انحرافاته، وتبعاً لذلك كان مثال الرجل الشبقي الذي يقع بسهولة في حبال النصب والانحراف، رغم أنه أب لأسرة، ويسوق عليها المثاليات، لهذا راح يتصل مع مواقع إباحية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

تحصل عليها، وتم النصب عليه بخمسمائة دولار أمريكي على يد (ريكا) الأمريكية التابعة لمؤسسة تديرها جهات مشبوهة مثل الموساد الإسرائيلي، والسي آي إيه الأمريكية، والحوارات في هذا الاتجاه تعطي مدى النقد اللاذع للإنسان العربي الذي اتبع هذه الأساليب وأوصلته إلى الانحطاط .

- " أرسلت لـ (لويكا) رسالة لتفتح الماسنجر، ففتحته وقلت لها : لويكا هل تعرفين كايا الألمانية ؟

- أي كايا حبيبي ؟ أنا اسمي كايا، رمزي وليس من مكوننا الاسمي، قلت لها سنعود لكلمة حبيبي بعد أن أقول لك عنها فهي ألمانية مثلك ، مسؤوله عن .. – هنا يسأل أبو أحمد عن أشياء إباحية وعلاجات جنسية خاصة - ثم تقول لويكا : عن أي شيء تتحدث "(37).

ويحاول أبو أحمد استدراجها فتقطع الحديث وتحوله إلى القول : " لا بد أنك تفكر بصورة غير اعتيادية، فإذا كنتم تقاتلون بعدة بوصات – تعني بالأعضاء الجنسية ووو - فقد دكّكم (بوش وبلير) والغرب عبر أكثر من قرن من الزمان بصواريخ لو قسّمتَ طولها لأوصلتكم إلى قعر جهنم .. - اللعينة ! إنها تعيرني بالهزيمة ؟ وهي هزيمة معركة، صحيح أننا أضعنا حتى الآن فلسطين والعراق وعربستان والإسكندرية والشيشان والسودان والصومال وأفغانستان وكشمير، والطنب الكبرى والصغرى، ولكن بقي لدينا الكثير الكثير "(38)، وفي حوار آخر نجد:

- لويكا ! ما الذي تتوقعينه ؟ قالت لويكا : لماذا لا تترك هذه الأمور– التفكير بعوالم النساء والشهوات – وتأتي لتقيم هنا في ألمانية وعملك فيها مضمون ومستقبلك ليس في هذه الترهات " قلت لها : أقسم يا لويكا انك لست على ما يرام أتتركين ألمانيا من أجل حفنة من الماركات ؟ .. إننا لا نترك بلادنا وأنت تعلمين يا لويكا ... ثبت أنك لا تعرفين إنجاز الأمة ، ففي الخليج وحده استطعنا تحقيق إنجاز عالمي عجزت عنه الأمم الاخرى، ودخول موسوعة جينس ، فقد صنعنا كبسة – صنف من الطعام -عظيمة جدا تكفي الأمة ليوم كامل، كما صنعنا بفضل وجود البترول في بلادنا أعظم قالب تورتة وكيك في العالم، واما في فلسطين، فعلى الرغم من أنها ترزح تحت الاحتلال البغيض يا لويكا، فقد قاموا بإعداد طبق مسخن دخلوا به الموسوعة بالرغم من مقاومة سلطات الاحتلال..."(39) .

مثل هذه النصوص وغيرها تبين مدى الفروقات الفكرية والحضارية بين عالم الشرق والغرب، وخاصة ما يتعلق بالعالم العربي .

وفي مثل هذه الحالات لنقل وقائع مشهد معين مثير وجاذب للتلقي، يغدو للحوار فعله، حيث " من الضروري تماما للمؤلف أو الناطق

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

باسمه أن ينسحب إلى الوراء من أجل نظرة شاملة للموضوع من حين لآخر، وهو إذ يفعل هذا فإن القصة تصبح بمثابة انطباعه الخاص، يجري تلخيصه وتصويره للقارئ "(40). وهذا يصب في صالح النص الروائي هنا.

الهوامش:

(1) يزر(فولجانج): فعل القراءة ، نظرية جماليات التجاوب في الأدب، ترجمة :حميد لحمداني و الجلالي الكدية، فاس-المغرب – مطبعة الأفق، 1995، ص 31/30.

(2) بوتور (ميشيل): بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، بيروت، منشورات عويدات، 1982، ص136.

(3) ياكبسون (رومان) : قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، الدار البيضاء، 1998، ص103.

(4) بلعابد (عبدالحق): عتبات ، من النص إلى المناص، الجزائر العاصمة ، منشورات الاختلاف ، 2008 .

(5) لحمداني (حميد): مجلة علامات المغربية، مجلد 46، ع2 ، 2002، ص19.

(6) أشهبون (عبدالمالك):عتبات الكتابة في الرواية العربية ، دمشق، دار الحوار، 2009، ص32 .

(7) القيرواني (ابن رشيق): العمدة تحقيق محمد قرقزان، ط2، بيروت، دارالمعرفة ، 1999، ص 388.

(8) الشيلابي (أحمد محمد) : القضايا الاجتماعية في الرواية الليبية ، 1961-1995، مصراتة ، مكتبة الشعب،1982،ص19.

(9) عبابنة (يحي): رواية ؛ جست شاتنغ - ليس أكثر من كلام ، إربد ، دار المتنبي للنشر ، 20011 ، ص 169.

(10) المصدر نفسه: ص169.

(11) عبابنة (يحي)، رواية : جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام المصدر السابق، ص170.

(12) أدونيس ، علي أحمد سعيد : الكتاب ج 1، بيروت دار الساقي، 1995، ص1 وص7

(13) ياكبسون (رومان): قضايا الشعرية ، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون ، الدار البيضاء، دار توبقال ، 1998 ص 103.

(14) بورو نوف (رولان) وريال أوئيليه: عالم الرواية ، ترجمة نهاد التكرلي ، بغداد ، وزارة الثقافة، دار الشؤون الثقافية،1991، ص 190.

(15) المصدر نفسه : ص 188.

(16) عبابنة (يحي) :رواية جست شاتنغ - ليس أكثر من كلام ص164.

(17) عبابنة (يحي): رواية جست شاتنغ - ليس أكثر من كلام ، ص18.

(18) المصدر السابق : ص18.

(19) ولسن (كولن): فن الرواية ، ترجمة : محمد درويش، بغداد ، دار المأمون، 1986، ص27.

(20) سناجلة (محمد) : رواية ظلال الواحد، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470

(21) فحماوي (صبحي) ، رواية : الاسكندرية 2050 ، بيروت ، دار الفارابي، 2009.

(22) عسكر (قصي): روايات وقصص من الخيال العلمي، القاهرة، دار شمس،2010،ص21.

(23) الشنطي (محمد): آفاق الرؤية وجماليات التشكيل، حائل، منشورات النادي الأدبي، 1418هـ ،ص519.

(24) هوراس: فن الشعر، ترجمة لويس عوض، القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص 132.

(25) بارت (رولان): لذة النص، ترجمة منذر عياشي ، مكتبة الإسكندرية،1992ص 25.

(26) حسن(عبدالواحد): ظاهرة تأريخ وتغريب، القاهرة، مكتبة الإشعاع ، 1999، ص 97.

(27) شعلان (سناء) : السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة في الأردن – 1970- 2002 ، عمان ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، ص 61.

(28) الكستابي (إدريس) دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي المعاصر، بيروت ، مجلة الآداب ، ع15، 1969، ص17.

(29) عبابنة (يحي) ، رواية: جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام المصدر السابق ،ص21.

(30) عبابنة (يحي) ، رواية :جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام ، ص12.

(31) المصدر السابق : ص12.

(32) عبابنة (يحي) : رواية : جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام ،ص 20.

(33) رامي (جورج هنري) ،نظرية الرواية علاقة التعبير بالواقع ، ترجمة :محسن جاسم الموسوي، بغداد منشورات مكتبة التحرير، 1986، ص 104 .

(34) عبابنة (يحي) : رواية : جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام ، ص136.

(35) المصدر السابق: ص 141/140.

(36) لاغرانج (فريدريك): الذكورية في الأدب العربي الحديث، مجلة أبواب ، ع 22، 1999،ص 130.، ولهذا يأتي اهتمام أبي أحمد الشرقي بالرجيم لتحقيق الذات مقابل الآخر.

(37) عبابنة (يحي): رواية :جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام ص 145.

(38) المصدر السابق : ص 146.

(39) عبابنة (يحي) : رواية :جست شاتنغ – ليس أكثر من كلام ، 126.

(40) لوبك (بيرس) :صنعة الرواية، ترجمة :عبدالستار جواد ، بغداد ،منشورات، وزارة الثقافة والإعلام ، 1981،ص 171..

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/470